

الأستاذ: بلخضر طيفور

جامعة ابن خلدون - تيارت

محاضرات في منهجية العلوم السياسية

السنة الأولى ليسانس

العلوم السياسية

السداسي الأول

**** النظرية ****

مفهوم النظرية: في المنطق الرياضي تُعتبر النظرية بثابة نهائية الإستدلال لمجموعة من البديهيات، وهذا يشمل كل القضايا الإستدلالية المنطلقة من مفهوم ومبدأ المسلمات¹، ويعرفها "بريث وايت" Braith waite بأنها: "مجموعة من الفروض التي تكون نسفا استنباطيا، بمعنى أنها تنتظم في ترتيب متتابع فيه بعض الفروض اللاحقة تكملة للفروض السابقة، فالنظرية تعدّ بمثابة مجموعة من القضايا التي تنتظم في نسق استنباطي وتندرج على مستويات تحتل فيها القضايا أو الفروض ثلاث مستويات، المستوى الأعلى يمثل المقدمات المنطقية والمستوى الأدنى يمثل نتائج فروض المستوى الأعلى، أما المستوى الأوسط فيمثل نتائج جزئية لفروض المستوى الأعلى ويمثل كذلك مقدمات منطقية جزئية لفروض المستوى الأدنى"².

ويقوم الخطاب العلمي على هيكلية بنوية تشكل البنية التحتية لشريط إنتاج المعرفة، وتضم هذه الهيكلية ثلاث مستويات أساسية تتمثل في الظواهر قيد الدراسة، المنهج والنظرية³، وبهذا المنطق تُعتبر النظرية بمثابة مجموعة مدمجة من القوانين والأحكام العامة التي تستطيع تأمين التفسير النظامي لحقل معرفي أو مجموعة الملاحظات التي قد تُستعمل للتنبؤ بالأحداث، ومن هذه الناحية فمركزية النظريات العلمية أو التجريبية تهدف إلى تفسير الظواهر والأحداث السياسية أو التنبؤ بها، ويُفترض أن هذه النظريات تشير إلى الكيانات والعلاقات التي هي ليست قابلة للمراقبة على نحو مباشر، غير أنها تُختبر

¹ Encyclopedia of Philosophy, (Donald M. Borchert, and others), 2nd edition, (Vol.09), USA, Thomson Star Logo and Macmillan Reference, Printed in the United States of America, 2006, p 413.

² مصباح عامر، الإتجاهات النظرية في تحليل العلاقات الدولية، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 2006، ص 15.

³ روجر هيوك، وآخرون، البحث النقدي في العلوم الإجتماعية، مرجع سابق، ص 88.

على نحو غير مباشر عن طريق الملاحظة⁴. والتصور النظري هو محل خلاف وجدل في العلوم الاجتماعية، فالمفهوم البسيط والأحادي للنظرية غير وارد التطبيق والإستعمال فيما بين الحقول المعرفية من الإقتصاد الذي يستخدم الرياضيات إلى الأنثروبولوجيا الثقافية تبقى تفسر النظرية تماماً كأى محاولة انتظام وتفسير ظاهرة معينة؛ لكن هذا لا يعني أن النظرية لا تلعب دوراً مركزياً في العلوم الاجتماعية والسياسية⁵.

جوهر ودور النظرية: جوهر النظرية هو تفسير الظاهرة السياسية، بينما لا تقوم النماذج سوى بالكشف والإيحاء للعلاقات السياسية والوسائل المفيدة التي يمكن أن يستخدمها الباحث في دراسته وبحوثه⁶، فالنظرية في آخر المطاف هي عبارة عن أي مجموعة من المقولات والإفتراضات الموضوعية من قبل البشر وبالتالي هي أطروحات يمكن مجادلتها وإيجاد ما يثبت بطلانها أو صحتها وصدقها. ويتضح مما سبق أن أي نظرية تتكون أساساً من مجموعة مداخل هي عبارة عن تعريفات للمصطلحات التي تشير إلى المفاهيم الأساسية للظاهرة أو الموضوع المدروس وهي على درجة كبيرة من التجريد، ثم تأتي الفرضيات التي هي عبارة عن تخمينات الباحث، أي افتراضه لوجود قواعد معينة في الموضوع قيد التحليل، حيث أن الظواهر التي يشاهدها الباحث تثير في ذهنه أفكاراً وتصورات معينة تكون الإطار النظري لنسق المعرفة العلمية المتعلقة بالظاهرة، وهذه التصورات والفرضيات تُعد بمثابة مصدر للكشف العلمي وجوهره⁷، وتلعب الفرضيات دوراً كبيراً في بناء النظريات، وينظر إلى الفرض على أنه أداة تعمل على كشف حقائق والعلاقات كما أنه خطوة لترتيب وتوجيه البحث. بعدها يأتي الوصف الذي هو عرض حول أجزاء أو علاقات لشيء معين ويمكن أن يرتبط بالتصنيف والتعريف والتحديد. أما فيما يخص التحليل فهو التجزئة وتفتيت الكل إلى أجزائه الأساسية وإخضاعها إلى التجربة الكمية أو الكيفية ويمكن أن يرتبط التحليل بالشرح والتوضيح عكس التفسير الذي هو الآخر أحد بُنى النظرية، وهو تجميع الأجزاء في شكل الكل من الأفكار والتحليلات المختلفة إلى تركيب معقد ومتناسك؛ ومن المهم فهم تمييز أساسي بين النظرية وشبه النظرية "Meta-theory" التي تُعنى بالمعايير التي تستخدم للفصل بين مختلف معاني النظرية وأي منها يجب تقديمه على غيره من المعاني، كما أن مصطلح النظرية يُستخدم بطريقة تأسيسية كمفهوم النموذج، الإطار التحليلي و نظرة كلية "Global context"⁸.

⁴ مصباح عامر، نفس المرجع السابق، ص 12.

⁵ International Encyclopedia of the Social Sciences, (William A. Darity, and others), 2nd edition, (Vol.08), USA, Thomson, Star Logo and Macmillan Reference, Printed in the United States of America, 2008, p 343.

⁶ عبد الكافي إسماعيل عبد الفتاح، مرجع سابق، ص 459.

⁷ محمد عبد الفتاح العيسوي، ومحمد عبد الرحمن العيسوي، مناهج البحث العلمي في الفكر الإسلامي والفكر الحديث، القاهرة: دار الراتب الجامعية، 1996، ص 130.

⁸ مارتين غريفشيس وتيري أوكالاها، المفاهيم الأساسية في العلاقات الدولية، (ترجمة ونشر: مركز الخليج للأبحاث)، الإمارات العربية المتحدة، 2008، ص 430.

ويختلف الباحثون حول دور النظرية في البحث، حيث الخلاف حول وظيفة النظرية، هل إنها تكتفي بالوصف والتصنيف والتحليل والفهم والتفسير، أم إنها تستفيد من بناء فرضياتها للوصول إلى حقائق وقوانين تستخدمها بعد ذلك في الوصول إلى التنبؤ والتوقع، فهناك يرى بأن قيمة النظرية وصلاحياتها إنما تتوقف على صحة وواقعية الفروض التي تقوم عليها، وهناك من يرى بأن قيمتها تتحقق بقدرتها على التنبؤ. فالطرف الأول يلخص وظيفتها في تنظيم الحقائق والبيانات في إطار من الترتيب المنطقي الذي يمكن من خلاله استخلاص مدلول معين لهذه الحقائق، والتعرف على جوانب الانتظام والشذوذ في التفاعلات بين تلك الظواهر وتحديد مقاييس الأهمية النسبية بين العوامل والمتغيرات التي تدخل في سياق تلك التفاعلات، وبذلك تقدم النظرية إطاراً فكرياً يمكن على أساسه تنظيم الظواهر وتصنيفها وإيجاد العلاقات بينها؛ أما الطرف الثاني فيرى أن وظيفة النظرية هي التفسير والتنبؤ، أي أن يتجاوز الإنسان الوصف للظواهر التي تمت ملاحظتها وأن يشتغل بالتفسير السببي أو التنبؤ المبني على الوقائع والظروف المؤكدة مسبقاً، ويعتمد هذا الإتجاه على إمكانية استعمال وسائل وأدوات القياس الكمي، مثل الأرقام والبيانات والإحصائيات وغيرها، وينظر في الأساس إلى النظرية بأنها مجموعة من الحقائق وأنها تكتشف من خلال الفرضيات.

وبصفة عامة هناك ثلاث وظائف للنظرية في البحث العلمي: التفسير، التأويل والتنبؤ، هذه الميزات الثلاثة توافق متطلبات العلوم الطبيعية، أما فيما يخص العلوم السياسية فلم يثبت بعد وصولها إلى هذه الدرجة من النضج، فالنظرية في العلوم السياسية لم تصل إلى مستوى التطور الكافي من أجل توليد النماذج الصارمة كما هو الحال في العلوم الطبيعية⁹.

أنواع ومستويات النظرية: يوجد نوعين رئيسيين من النظريات في العلوم السياسية، معيارية وإمبريقية. النظرية المعيارية "Normative theory" تنظر فيما يجب أن تكون عليه الأشياء في المجتمع من موقع فلسفي، وكل المدارس من اليونانيين إلى الرومان فالعصر الحاضر أسس المنظرون المعياريون لإطار تفكيري وتحليلي لجعل ما هو مثالي من ناحية التفكير واقعي من ناحية التطبيق من خلال طرح نظري¹⁰، ولقد اهتم حقل النظرية السياسية تقليدياً بدراسة النظرية المعيارية التي ركزت على دراسة معايير وقواعد السلوك السياسي، حيث تمحورت هذه الدراسات حول ما يجب أن يكون عليه سلوك وتصرفات الإنسان في المجال السياسي، كما سيطرت دراسة تاريخ وتطور القيم والأهداف السياسية حيث تركز الجدل حول بعض القيم الأساسية مثل العدالة والمساواة والديمقراطية والأخلاق¹¹؛ لكن من

⁹ Denis Monière, Jean Herman Guay, Introduction aux théories politiques, Canada, Montréal : Québec, Amérique, Éditeur (Une collection développée en collaboration avec la Bibliothèque Paul-Émile-Boulet de l'Université du Québec à Chicoutimi), 1987, p 19.

¹⁰ Todd Landman, Issues and Methods in Comparative Politics: An Introduction, third Edition, op. cit, p 16

¹¹ محمد بشير المغربي، مرجع سابق، ص 89.

منطلق أن دور النظرية السياسية يكمن في كتابة وتفسير الواقع السياسي، فمن هذا المفهوم يكون الفرق بين النظرية الوضعية والنظرية المعيارية، فالأولى تحكم على الأفعال في حين تحكم الثانية على القيم¹². أما النظرية الإمبريقية **"Empirical theory"** فهي إبستمولوجية أو نظرية للمعرفة تدعي أن أصل كل المعارف في النهاية هو نتاج لإدراك الخبرة الإنسانية للواقع كما هو، وتفتح منهاجاً للتمييز بين بُنى الخبرة الصحيحة الأصلية والتي يُمكن الإعتماد عليها، وبين إظهار التشكيل الواقعي للعالم الذي هو نتيجة الخبرة البشرية، والنظرية الإمبريقية تُؤسس للظاهرة كما هي من خلال مجموعة تجارب وخبرات معينة¹³، كما أنها أيضاً تُؤسس للعلاقات بين مفاهيم أو تصورين أو أكثر في محاولة لتفسير حدوث الظاهرة السياسية؛ والنظريات في العلوم السياسية يمكن أن تكون استنباطية **"Deductive"** أو استقرائية **"Inductive"**، الاستنباطية* تتوقف عند النتائج بواسطة الأسباب التطبيقية من أجل إعطاء مجموعة من المقدمات، أما الاستقرائية** تتوقف عند النتائج من خلال ملاحظة ومعرفة الوقائع¹⁴. وتتقسم مستويات النظرية في العلوم السياسية إلى أربعة مستويات، النظرية ضيقة النطاق **"Narrow gauge theory"**، النظرية متوسطة المدى **"Middle range theory"**، النظرية الجزئية **"Partial theory"**، وأخيراً النظرية العامة **"General theory"**؛ وسبب هذا التصنيف أن علماء السياسة لم يُوفّقوا كثيراً في النظرية التجريبية نظراً لطبيعة الظواهر السياسية لذلك بدأوا يتخلّون عن النظرية الكلية واتجهوا نحو بناء نظريات جزئية تراعي المجال الزمني والجغرافي والبيئي للظاهرة.

ولعل أهم ما يعوز النظرية في العلوم السياسية هو قدرتها على التنبؤ، وذلك بسبب صعوبة ضبط المتغيرات التي تحكم العملية السياسية، لأن النظرية في هذه الحالة لا تستطيع وصف الواقع انطلاقاً من الظواهر الملاحظة، وأشار "إيستون" David Easton في كتابه (النظام السياسي 1953) إلى ضرورة بناء نظرية علمية في العلوم السياسية، وفي نقده للنظرية السياسية قدم ثلاث مستويات من التعميمات، الأولى تتمثل في التعميمات الجزئية التي تُؤسس للعلاقات المتكررة بين متغيرين معزولين ومُعرّفين، وهذا النوع من التعميمات موجود في دراسات السلوك الانتخابي، والمستوى الثاني نجد التعميمات الجزئية التي تضم مجموعة من الافتراضات المستقلة التي تهدف إلى تركيب تلك التعميمات وهي تضم أكبر قدر من الملاحظات الإمبريقية، وهذا النوع من التعميمات يوجد في دراسات الأحزاب، الجماعات الضاغطة،

¹² Monière Denis, Critique épistémologique de l'analyse systémique de David Easton : Essai sur le rapport entre théorie et idéologie, Canada, Les Éditions de l'Université d'Ottawa, Collection des Sciences sociales, 1976, p 50.

¹³ The Encyclopedia of political science, (George Thomas Kurian, and others), op. cit, p 502.

* الاستنباط هو البرهان الذي يبدأ من قضايا يُسلم بها ويسير إلى قضايا أخرى تنتج عنها بالضرورة دون التجارب، والاستنباط كمنطق هو كل برهان دقيق أما كمنهج فهو السلوك أو الأسلوب العام المستخدم في العلوم، عكس المنهج الاستقرائي الذي يقوم على التجربة والملاحظة.

** الاستقراء هو الوسيلة المثلى التي تُستخدم في البرهنة وفي الكشف عن الأسباب ويُستخدم في العلوم الرياضية كالحساب والهندسة وبصفة عامة في كل العلوم التي تحاول معرفة العلاقات السببية.

¹⁴ Todd Landman, Issues and methods in comparative politics: An Introduction, second Edition, op. cit, p 15.

... إلخ، وآخر مستوى يتمثل في النظريات النظامية أو العامة التي تميز بين نوعين من النظريات من حيث أهميتها ومن حيث انسجامها، ولم يدعي إيستون بالنظرية العامة وإنما صنفها في شكل تصور الإطار المفاهيمي "Conceptual Framework". ووضع "إيستون" خمس أسس لوظيفة النظرية وهي:

- 1- وُضِعَ معايير لاختيار المتغيرات المهمة للتحليل.
- 2- تثبتت العلاقات فيما بين هذه المتغيرات.
- 3- تفسير العلاقات السببية التي تحرك العلاقات بين الظواهر الملاحظة.
- 4- إعداد شبكة من التعميمات الجزئية الضيقة المتناسكة وفقا لمخطط منطقي.
- 5- في النهاية، الكشف عن ظواهر جديدة تبسط آفاق واسعة للتحليل¹⁵.

¹⁵ Denis Monière, et Jean Herman Guay, Introduction aux théories politiques, op. cit, pp. 21-23.